التوأم توم سوير و*هكلبري فن*. وفي هذه الأخيرة، وهي الرواية الأهم والأفضل بين أعماله كلها، يتضح لنا الوجه الكالح للتركيبة الاجتماعية الأمريكية بكل ما فيها من كبت للحرية الفردية وخداع وجشع، وكل ما فيها من تناقض مع أسطورة «آدم الجديد» و «شعب الله المختار» و «العالم البكر». الإنسان الأكثر براءة وطيبة في هذه الرواية هو هكلبري فن بطل الرواية، وهو صبي يمارس عليه شتى أنواع الاستغلال والسيطرة ومن مختلف المحيطين به باستثناء العبد الهارب جم الذي يظل رفيقه في معظم فصول الرواية كشاهد آخر على أحد الجوانب غيرالمضيئة في تاريخ أرض الميعاد، وهو جانب العبودية.

إن النقد الذي يوجهه مارك توين في كثير من أعماله للثقافة والمجتمع الأمريكي لا يخاطب الجذور التوراتية أو الإنجيلية لتلك الثقافة والمجتمع بشكل صريح كما نجد عند ملفل أو هوثورن، ولكنه نقد يتجه إلى مجموعة القيم الوهمية المستمدة من تلك الجذور، القيم التي بنى عليها الأمريكيون مؤسساتهم الاجتماعية والثقافية والسياسية وانطلقوا منها في توجهاتهم. وهذه القيم اتضح لتوين أنها تتناقض مع الواقع الإنساني الأمريكي سواء على مستوى الفرد أو المجتمع.

في أدب القرن العشرين الذي يُشكل أدب مارك توين جسراً إليه يستمر الاتجاهان الرئيسان اللذان سبقت الإشارة إليهما، وهما الاتجاه التفاؤلي المؤكد على الإمكانات الكامنة الرائعة للعالم الجديد، والاتجاه الانتقادي الأقرب إلى التشاؤم. فشاعران مثل هارت كرين و والاس ستيفنز، وهما من كبار الشعراء الأمريكيين في العصر الحديث، يسيران في الاتجاه التفاؤلي بشكل عام، بينما نجد روائيًا مثل همنغواى وشاعراً مثل وليم كارلوس وليامز في الاتجاه المضاد. يقول همنغواي في كتابه *تلال أفريقيا الخضراء* الذي نشر في عام ١٩٣٥ : «ذهب شعبنا إلى أمريكا لأنها المكان الذي يذهب إليه الناس حينئذٍ. كانت أمريكا وطنًا طيبًا ونحن جعلنا منها فوضى دموية. إنني ذاهب الآن إلى مكان آخر مثلما أنه كان لنا دائمًا الحق في الذهاب إلى مكان آخر. وكما كنا دائمًا نذهب فليأت الآخرون إلى أمريكا، أولئك الذين لا يدركون أنهم جاءوا متأخرين. لقد جئنا إليها كأفضل ما تكون وحاربنا من أجلها عندما كانت تستحق أن يُحارب من أجلها. وأود الآن أن أذهب إلى مكان آخر. لقد كنا نذهب دائمًا في الأيام الخالية،